

## نصوص مختارة لجبران خليل جبران

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

### أيتها الريح

تُزَيِّنُ أَنَا مَرْتَحَةً فَرِحَةً، وَأَوْنَةً مَتَأَوِّهَةً نَادِبَةً، فَنَسْمَعُكَ وَلَا نَشَاهِدُكَ، وَنَشْعُرُ بِكَ وَلَا نَرَاكَ، فَكَأَنَّكَ بَحْرٌ مِنَ الْحَبِّ يَغْمُرُ أَرْوَاحَنَا وَلَا يُغْرِقُهَا، وَيَتَلَاعَبُ بِأَفْنَدَتِنَا وَهِيَ سَاكِنَةٌ.

تتصاعدين مع الروابي وتنخفضين مع الأودية وتنبسطين مع السهول والمروج. ففي تصاعديك عزم، وفي انخفاضيك رقة، وفي انبساطك رشاقة، فكأنك ملكك رؤوف يتساهل مع الضعفاء الساقطين ويرتفع مع الأقوياء الشائخين.

في الخريف تُنوحين في الأودية فتبكي لنواحك الأشجار، وفي الشتاء تثورين بشدة فتثور معك الطبيعة بأسرها. وفي الربيع تعتلين وتضعفين ولضعفك تستفيق الحقول، وفي الصيف تتوازين وراء نقاب السكون، فنخالك ميتًا قتلته سهام الشمس ثم كفتته بحرارها.

لكن، أنادبة كنت أيام الخريف، أم ضاحكة من خجل الأشجار بعد أن عرّيتها من ملابسها؟ أغاضبة كنت أيام الشتاء، أم راقصة حول قبور الليالي المكلسة بالثلوج؟ أعليلة كنت أيام الربيع، أم حبيبة أضناها البعاد فجاءت تصعد بالتنهد أنفاسها على وجه حبيبها شاب الفصول لتنبهه من رقادها؟ أميئة كنت أيام الصيف، أم هاجعة في قلوب الأثمار وبين جفونات الكروم وعلى بيادر القش؟

أنت تحمليين من أزقة المدينة أنفاس العليل ومن الروابي أرواح الأزهار. وهكذا تفعل النفوس الكبيرة التي تحتمل أوجاع الحياة بسكينة، ويسكينة تلتقي بأفراحها.

أنت تهمسين في أذن الورد أسرارًا غريبة تفهم مفادها، فتضطرب تارة، وطورا تبسّم. وهكذا تفعل الآلهة بأرواح البشر.

أنت تُبطّئين هنا، وتتسارعين هناك، وتتراكضين هنالك، ولكنك لا تقفين أبداً. وهكذا تفعل فكرة الإنسان التي تحيا بالحركة وتموت بالسبات.

أنت تكتبين على وجه البحيرة أشعارًا ثم تمحينها. وهكذا يفعل الشعراء المترددون.

من الجنوب تجيئين حارة كالحبّة، ومن الشمال تأتيين باردة كالموت، ومن المشرق لطيفة كملامس الأرواح، ومن المغرب تندفقين شديدة كالبغضاء. أمتقلبة أنت كالدهر؟ أم أنت رسول الجهات تُبلّغين إلينا ما تأمّنك عليه؟

تَمُرِّينَ غَاضِبَةً فِي الصَّحَارِي فَتَدُوسِينَ القَوَافِلَ بِقِسَاوَةٍ تَمُّ تُلْجِدِيهَا بِلُحْفِ الرَّمَالِ. فَهَلْ أَنْتِ أَنْتِ ذَلِكَ السِّيَالِ الحَفِيّ، المَتَمَوِّجُ مَعَ أَشْعَةِ الفجرِ بَيْنَ أَوْرَاقِ الغُصُونِ، المُنْسَلِّ كَالأَحْلَامِ فِي مَنَعَطَاتِ الأودِيَةِ حَيْثُ تَتَمَايَلُ الأَزْهَارُ شَعْفًا بِكَ وَتَتَخَاصَرُ الأعْشَابُ سُكْرًا مِنْ أَنْفَاسِكَ؟

تَتَوَرِّينَ ظِلْمًا فِي البَحَارِ فَتَحَرِّكِينَ سَاكِنَ أَعْمَاقِهَا، حَتَّى إِذَا أَزِيدَتْ حَنَنًا عَلَيْكَ فَتَحْتِ فَاهَا لِحَةَ وَلَقَمْتَهَا مِنْ السَّفَنِ والأَوْرَاقِ لِقَمًا مَرَّةً. فَهَلْ أَنْتِ أَنْتِ ذَلِكَ المَحَبِّ المَتَلَاعِبِ حَنُونًا بِغَدَائِرِ الأَطْفَالِ المَتَرَكَضِينَ حَوْلَ المَنَازِلِ؟

إِلَى أَيْنَ تَتَسَارَعِينَ بِأرواحنا وَتَنهَدَاتِنَا وَأَنْفَاسِنَا؟ إِلَى أَيْنَ تَحْمِلِينَ رُسُومَ ابْتِسَامَاتِنَا؟ وَمَاذَا تَفْعَلِينَ بِشَعَلَاتِ قُلُوبِنَا المَتَطَايِرَةِ؟ هَلْ تَذَهَبِينَ بِهَا إِلَى مَا وَرَاءَ الشَّفَقِ، إِلَى مَا وَرَاءَ هَذِهِ الحَيَاةِ؟ أَمْ تَجْرِيْنَهَا فَرِيْسَةً إِلَى المَغَاوِرِ البَعِيدَةِ والكهوفِ المَحِيْفَةِ وَهَنَاكَ تَقْذِفِينَهَا يَمِينًا وَشِمَالًا حَتَّى تَضْمَجَلَّ وَتَحْتَفِي؟

فِي سَكِينَةِ اللَّيْلِ تُبِيحُ لِكَ القُلُوبِ أَسْرَارَهَا، وَعِنْدَ الفجرِ تُحْمَلُكَ العَيُونُ اهْتِزَازَاتٍ أَجْفَانَهَا. فَهَلْ أَنْتِ ذَاكِرَةٌ مَا شَعَرْتَ بِهِ القُلُوبِ وَمَا رَأَتْهُ العَيُونُ؟

بَيْنَ جُنْحَيْكَ يَسْتَوِدِعُ الفَقِيرُ صَدَى انْسِحَاقِهِ، وَالبَيْتِيْمُ حُرْفَتَهُ، وَالحَزِينَةُ تَأْوِهَاتِهَا. وَطَيَّ أَنْوَابِكَ يَضَعُ العَرِيبُ حَنِينَهُ، وَالمَتْرُوكُ لَهْفَتَهُ، وَالسَّاقِطَةُ عَوِيْلَ نَفْسِهَا. فَهَلْ أَنْتِ حَافِظَةٌ لِهؤلاءِ الصَّغَارِ وَدَائِعِهِمْ؟ أَمْ أَنْتِ كَهَذِهِ الأَرْضِ لَا تُودِعُهَا شَيْئًا إِلَّا وَتُحَوِّلُهُ إِلَى جِسْمِهَا؟

أَسَامِعَةٌ أَنْتِ هَذَا النِّدَاءِ، وَهَذَا العَوِيْلِ، وَهَذَا الضَّجِيحِ، وَهَذَا البِكَاءِ؟ أَمْ أَنْتِ كالأَقْوِيَاءِ مِنَ البَشَرِ تَمْتَدُّ إِلَيْهِمُ الأَكُفُّ فَلا يَلْتَفِتُونَ، وَتَتَصَاعَدُ نَحْوَهُمُ الأصْوَاتُ فَلا يَسْمَعُونَ؟

أَسَامِعَةٌ أَنْتِ يَا حَيَاةً لِلسَّمْعِ؟

جبران خليل جبران،

مِنْ كِتَابِ دَمْعَةٌ وَابْتِسَامَةٌ، جبران خليل جبران، دَرَاْسَةٌ وَتَحْلِيلٌ لِنَازِكِ سَابَا يَارِد، ط. ١، بِيروْت، مُؤَسَّسَةٌ نوْفَل، ١٩٨١، ص ١٨٨-١٩١.

###

عندما ولدت كآبتي

عندما ولدت كآبتي أرضعتها حليب العناية وسهرت عليها بعين الحب والحنان.  
فنمت كآبتي كما ينمو كل حي - قوية جميلة تفيض بحمّة وإشراقًا.

فأحبت كآبتي وأحببني كآبتي، وأحببنا معًا العالم المحيط بنا، لأن كآبتي كانت رقيقة القلب عطوفًا فصيرت قلبي رقيقًا عطوفًا.

وعندما كنّا نتحدث معًا، أنا وكآبتي، كنّا نتخذ الأحلام أجنحةً لأيامنا ومناطق للبلينا، لأنّ كآبتي كانت فصيحة طليقة اللسان فصيرت لساني فصيحًا طليغًا.

وعندما كنّا نغني معًا، أنا وكآبتي، كان جيراننا يجلسون إلى نوافذهم مصغيين إلى غنائنا، لأنّ غناءنا كان عميقًا كأعماق البحر وغريبًا كغرائب الذكرى.

وعندما كنّا نمشي، أنا وكآبتي، كان الناس يرنون إلينا بعيون تشعّ حبًا وإعجابًا متحدّثين بنا بأرقّ الألفاظ وأحلاها، غير أنّ بعضًا منهم كانوا ينظرون إلينا بعيون الحسد، لأنّ الكآبة كانت منقبة محمودة وأنا كنت متباهيًا فخورًا بالكآبة.

ثمّ ماتت كآبتي كما يموت كلّ حيّ وبقيت أنا وحدي مفكّرًا متأملاً.

وها أنا ذا أتكلّم فتستقل أذناي صوتي، وأنشد فلا يصغي أحدٌ من جيرياني لإنشادي، وأطوف في الشوارع فلا يعبا أحدٌ بي، غير أنّي أتعرّى إذ أسمع في منامي أصواتًا تقول متحسرة:

"انظروا! انظروا! فهنا يرقد الرجل الذي ماتت كآبته".

جبران خليل جبران،

من كتاب المجنون، جبران خليل جبران، دراسة وتحليل، لنازك سابا يارد، ط. ١، بيروت، مؤسسة نوفل، ١٩٨٢، ص ٨٣-٨٤.

###

عندما وُلِدت مسرّتي

عندما وُلِدت مسرّتي حملتها على ذراعي وصعدت بها إلى سطح بيتي أنادي قائلاً: "تعالوا يا جيرياني ومعارفي تعالوا وانظروا! فقد وُلِدت مسرّتي اليوم. تعالوا وانظروا فيض مسرّتي الضاحكة أمام الشمس".

وشدّ ما كان دهشتي لأنّه لم يأت أحد من جيرياني ليري مسرّتي.

وظللت سبعة أشهر أعلن مسرّتي للناس بكرةً وأصيلاً من على سطح بيتي ولكن لم يصغ أحد قطّ لصوتي. فبقيت مسرّتي وحيدتين مهمليّن لا يعبا أحد بنا.

وما مرّ على ذلك سنة حتّى سئمت مسرّتي حياتها فامتقع لونها واعتلت إذ لم ينبض بحبّها قلب سوى قلبي، ولم يقبل فمها سوى فمي.

فقضت مسرّتي في وحشتها وأمسيّت لا أذكرها إلّا عندما أذكر كآبتي.

وما الذكرى سوى ورقة خريف لا ترتعش في الهواء هنيهة حتّى تُكفّن بالتراب دهرًا.

جبران خليل جبران،

من كتاب المجنون، جبران خليل جبران، دراسة وتحليل، لنازك سابا يارد، ط. ١، بيروت، مؤسسة نوفل، ١٩٨٢، ص ٥٨-٨٦.

###

### معرفة النفس

ثمّ قال له رجلٌ: هات حدّثنا عن معرفة النفس.

فأجاب قائلاً:

إنّ قلوبكم تعرف في السكينة أسرار الأيام والليالي، ولكنّ أذانكم تتشوّق لسماع صوت هذه المعرفة الهابطة على قلوبكم.

غير أنّكم تودّون لو تعرفون بالألفاظ والعبارات ما تعرفونه بالأفكار والتأمّلات.

وتتوقون إلى أن تلمسوا بأصابعكم جسد أحلامكم العاري.

وحسن أنّكم تتوقون إلى جميع ذلك.

فإنّ الينبوع الكامن في أعماق نفوسكم سيفجّر يوماً ما ويجري منحدراً إلى البحر، والكنز المطمور في أعماقكم غير المتناهية سينقب في ساعةٍ لا تعلمونها وتفتح أبوابه أمام عيونكم.

ولكن حذار أن تأخذوا معكم موازينكم لكي تنزوا بما كنزكم المجهول.

كلّاً، ولا تسبروا غور معرفتكم بقياسٍ محدودٍ أو جبلٍ مشدودٍ. لأنّ الدّات بحرٌ لا وزن ولا قياس له.

أجل، ولا تقلّ في ذاتك: "قد وجدت الحقّ" بل قلّ بالأحرى: "قد وجدت حقّاً".

ولا تقلّ: "قد وجدت طريق النّفس" بل قلّ بالأوّل: "قد رأيت النّفس تمشي على طريقي".

لأنّ النّفس تمشي على جميع المسالك والطّرق.

النفس لا تمشي على جبلٍ أو خيطٍ، كلّاً ولا هي تنمو كالقصبية. النّفس تطوي ذاتها، كالشّنين<sup>١</sup> ذي البتلات التي لا يُحصى عديدها.

جبران خليل جبران،

من كتاب النّبي، بيروت، منشورات مكتبة صادر، ١٩٨٥، ص ١٢٧-١٢٨.

<sup>١</sup> نبات يقوم على ساق ولا نبات له، ويسمّيه المصريون بعرائس النيل لأنّه ينبث عند زيادة النيل، يظهر صباحاً ويغيب مساءً (البستاني، المعلم بطرس، محيط المحيط، ط. جديدة، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٧، ص ٤١).